مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية المجلد الثالث العدد الأول (جوان 2019 م)
قسم العلوم الإسلامية / جامعة غرداية
E-ISSN: 2588-1728 / P-ISSN: 2602-7518
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

مكانة القاضي عياض وكتابه الشفا عند الجزائريين

د. محمد عبد الحليم بيشي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. جامعة قطر
halimbichi@gmail.com

ملخص

يتناول البحث التعريف بالمكانة العلمية للقاضي عياض وبكاتبه الشهير:" الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" والذي يُعد من الكتب التأسيسية في مجاله، وهو كتاب ضاهى به عياض كتب دلائل وأعلام النبوة في المشرق الإسلامي، حيث كانت المعركة حامية ضد الاتجاهات المنحرفة والديانات المناوئة للإسلام، في حين خلى المغرب منها، إلا أنه كان يشهد حداثة وضعف رسوخ عند مسلمي البربر في المغرب الأقصى الذي لم يبرأ من علل ظهور فرق وديانات مبتدعة ملفّقة كما هو الحال مع ديانتي برغواطة و حاميم الغماري. ولذلك اتجه مشروع عياض إلى ترسيخ مكانة المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدرس العلمي والتوجيهي. نال الكتاب شهرة بين الجزائريين الذين عكفوا على دراسته وإقرائه وشرحه واختصاره، فهو كتاب يضاهي البخاري والموطأ في كثرة المجالس والشروح والقراءة في المولد النبوي الشريف، مما يقود إلى القول بكونه من النصوص التأسيسية للثقافة المالكية الجزائرية. والبحث يرمي إلى الكشف عن معالم هذه المكانة للشفا، والتي كان من نتائجها البارزة ترسيخ السيرة النبوية، وتعميق حبّ الجناب المحمدي، والأدب معه، ومع سنته، ومعرفة حقوقه، والتأسي بأخلاقه، وهو ما أثمر مجتمعا جزائريا متمسكا بهويته الدينية، والتي لم تفلح معها دعوات الانحراف في باقي الأيام.

كلمات مفتاحية: الشفا، عياض، الشمائل المحمدية، علماء الجزائر.

The position of Judge Ayad and his book Shifa for the Algerians

Dr- Mohamed Abdel Halim Bichi
Associate Professor, College of Sharia and Islamic Studies, Qatar University.

Research Summary:

The research deals with the definition of the scientific status of Judge Ayyad and his famous writings: "Al Shifa in the definition of the rights of the Mustafa", which is one of the founding books in his field, and it is a book comparable to Ayadh, who wrote the signs and flags of the prophethood in the Islamic East, where the battle was fierce against the deviant trends and anti-Islam religions. When Morocco abandoned it, however, it was witnessing modernity among the Muslims of the Berbers in the Far Maghreb, which was not absolved of the ills of the emergence of divine and fabricated religions, as is the case with the religion of Bargata and Hamim El Ghammari. Therefore, Ayyad's project tended to establish the position of Al-Mustafa, peace be upon him, in the scientific and orientation lesson. The book gained fame among the Algerians who worked on studying it, reading it, explaining it and abbreviating it, as it is a book comparable to Al-Bukhari and Al-Muwatta in terms of the abundance of councils, annotations and reading in the Prophet's birth, which leads to the saying that it is one of the founding texts of the Maliki Algerian culture .The research aims to reveal the features of the status of the Shifa book, whose prominent results were the consolidation of the Prophet's biography, the deepening of the love of the Janabi Muhammadi, the literature with him, and with his Sunnah, the knowledge of his rights, and the emulation of his morals, which resulted in an Algerian society adhering to its religious identity, that's why the calls for deviation did not succeed later on.

Key words: Al-Shifa, Ayyad, Shamail Muhammadiyah, Algerian scholars.

مقدمة:

يتناول البحث التعريف بالمكانة العلمية للقاضي عياض وبكاتبه الشهير:" الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" والذي يعد من الكتب التأسيسية في مجاله، وهو كتاب ضاهى به عياض كتب دلائل وأعلام النبوة في المشرق الإسلامي، حيث كانت المعركة حامية ضد الاتجاهات المنحرفة والديانات المناوئة للإسلام، ففي حين خلى المغرب منها، إلا أنه كان يشهد حداثة وضعف رسوخ عند مسلمي البربر في المغرب الأقصى الذي لم يبرأ من علل ظهور فرق وديانات مبتدعة ملفقة كما هو الحال مع ديانتي برغواطة وحاميم الغماري. ولذلك اتجه مشروع عياض إلى ترسيخ مكانة المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدرس العلمي والتوجيهي.

نال الكتاب شهرة بين الجزائريين الذين عكفوا على دراسته وإقرائه وشرحه واختصاره، فهو كتاب يضاهي البخاري والموطأ في كثرة المجالس والشروح والقراءة في المولد النبوي الشريف، مما يقود إلى القول بكونه من النصوص التأسيسية للثقافة المالكية الجزائرية.

أهمية الموضوع: تعود أهميته من حيث الحاجة المعرفية لدواعم الهوية الإسلامية في المجتمع الجزائري الذي انصهر في نسيج اجتماعي فريد، وذلك بعدما كان قبائل مختلفة، وجواذم متنافرة، وبعد أن رسخت فيه ذهنيات شرسة صعبة المراس بكرّ الغرباء الذين طردتهم جيوش الفاتحين، ومرت عليه عقود من التشرذم الفرقي في اختيارات خاطئة لبعض المذهبيات، فتحول بعد ذلك إلى كتلة تاريخية لم تستطع معها المسوخ الفرنسية وما أجلبت به من خيلها ورجلها، ولا نواقيس قسسها، ولا خبز مبشريها، ولا سياط جلاّديها أن تصرف الشعب الجزائري عن دينه، ولذلك أسباب كثيرة منها الحضور القوي للسيرة النبوية التي عكف عليها الجزائريون، وكان منها كتاب الشفا الذي يُقرأ في الموالد النبوية، والذي اختص بعناية فائقة لدى الدوائر العلمية في الحواضر الجزائرية.

مشكلة البحث: تدور الإشكالية حول التعريف بالقاضي عياض وميراثه العلمي والأدبي، واختياراته العقدية، وإبداعه في كتاب الشفا، ومعرفة أشكال خدمة

الجزائريين لهذا الكتاب، وأهميته في الدرس العلمي والتربوي، وآثاره في رسوخ الهوية الدينية.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى الكشف عن العناية الجزائرية بالسيرة النبوية والشمائل المصطفوية، وتداخل ذلك مع باب العقائد، وأثر ذلك في الأخلاق والمتداول اليومي، فقلّ أن تجد جزائريا يسبّ أو ينتقص الجناب المحمدي، على خلاف المساس بالذات الإلهية أو الدّين، مما له أسباب أخرى أهمها الميراث البغيض للتقاليد الفرنسية العلمانية التي قامت عليها فرنسا في كره ومقت الدين الكاثوليكي، وهو مجال بحث آخر.

منهج البحث: يعتمد البحث المنهجين الوصفي التاريخي والاستقرائي، فمن حيث الأول يعرض لحياة القاضي وآثاره، وإبداعاته الحديثية والعقيدية، ومن حيث الثاني ينصب على تحليل تتبع وفهم الإبداعات الجزائرية في العناية بكتاب الشفا، وآثار ذلك في الدرس العلمي.

خطاطة البحث: لتفصيل القول العلمي فإننا يمكن أن نوزع الورقة البحثية إلى الآتي:

المطلب الأول: التعريف بالقاضي عياض.

المطلب الثاني: الآثار العلمية للقاضي عياض.

المطلب الثالث: المذهب العقدي للقاضي عياض.

المطلب الرابع: مكانة كتاب الشفا عند الجزائريين.

المطلب الخامس: التكوين والنظم العام لكتاب الشفا.

الخاتمة : النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: التعريف بالقاضي عياض:

1-اسمه وعصره: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض [1]، ولد بمدينة "سبتة" من بلاد المغرب الأقصى في سنة (476هـ)، في عهد الدولة المرابطية وحاكميها يوسف بن تاشفين (500هـ)، وابنه علي (537هـ). وهو مخضرم الدولتين المرابطية والموحدية التي عاصر من حكامها المهدي بن تومرت (524هـ) وخليفته عبد المؤمن بن علي الكومي (558ه)، المؤسس الفعلي لهذه الدولة الكبيرة.

2- **شيوخه:** ترجم عياض بذاته للعديد منهم في كتابه الغنية، وهو من أوائل كتّاب الفهارس والبرامج والأثبات، وشيوخه يتجاوزون المائة، وهم فريقان:

أ/أهل بلده سبتة: ومنهم أبو علي الحسن بن علي التاهرتي، والحسين بن عبد الأعلى الكلاعي، ومحمد بن عيسى التميمي، والخطيب أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد المعافري [2]، كما استجاز العابرين ببلده، ومنهم أبو نصر سهل بن علي النيسابوري، وأبو الحسن علي بن أحمد الربعي المقدسي [3].

ب/ الأندلس: جاز القاضي عياض للأندلس سنة (507هـ) [4]، وجال حواضرها وخاصة قرطبة التي لقي العديد من أساطينها، فأجازوه، ومنهم: ابن الحاج

(1) في التعريف بعياض انظر محمد بن تاويت الطنجي: مقدمة تحقيق كتابه ترتيب المدارك وتقريب المسالك في أعلام مذهب الإمام مالك- القاضي عياض / محمد بن عياض: التعريف بالقاضي عياض، (تح محمد بنشريفة) / المقري أبو العباس: موسوعة أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض / الذهبي سير أعلام النبلاء ج 12ص115/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 4 ص 68/ ابن الفرضي: تاريخ قضاة الأندلس، ص 101 / ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 277/ الضبي: بغية الملتمس ص 425/ الوادي آشي: البرنامج ص 216 / ابن خلكان: وفيات الأعيان ج3ص483/ ابن فرحون: الديباج ج2ص36/ محمد مخلوف: شجرة النور رقم 411ص 140/ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج4 ص138.

(2) عياض: الغنية، ص141، ص، 27، ص165

(3) عياض: الغنية: ص 209، ص 181.

(4) محمد بن عياض: التعريف ص 6.

محمد بن أحمد بن خلف، ومحمد بن علي بن حمدين [1]، و محمد بن عتّاب[2]، كما لقي ابن رشد الجد، وابن العربي المعافري، وبمرسية لقي الحافظ أبا علي الحسين بن محمد الصدفي شهيد معركة كتندة (514هـ)[3]

3-مكانته: أجمع المترجمون لعياض على إمامته وتفرّده وتبرزه في مختلف العلوم بالغرب الإسلامي، وهي إمامة وريادة شملت المغرب والمشرق، ولنا أن نسوق هنا شهادتين:

قال في الصلة:" وجمع من الحديث كثيرا، وله عناية كبيرة به واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنّن في العلم واليقظة والفَهم، واستُقضي ببلده -يعني مدينة سبتة- مدة طويلة حُمدت سيرتهُ فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده فيها، ثم ولي قضاء سبتة ثانيا"[4].

وقال عنه مؤرخ المالكية ابن فرحون:" كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، عالما بالنحو، واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرا بالأحكام، عاقدا للشروط، حافظا لمذهب مالك رحمه الله تعالى، شاعرا مُجيدا ريّانا من الأدب، خطيبا بليغا صبورا حليما، جميل العشرة، جوادا، سمحا كثير الصدقة، دءوبا على العمل، صلبا في الحق"[5].

4-أعماله القضائية والسياسية:

لُقب عياض بالقاضي لتوليه خطة القضاء ببلده سبتة سنة (515هـ) ثم غرناطة سنة (531هـ)، ثم عاد لسبتة مرة أخرى سنة (539ه)، وكان محمود السيرة ميمون

(1) عياض: الغنية: ص 48، ص 32، ص 162.

(2) في ترجمته انظر الغنية، ص 162/ الديباج، ج2 ص 28.

(3) الغنية، ص 129/ نفح الطيب، ج 2 ص 563/ الديباج، ج1 ص 292 / تذكرة الحفاظ، ج 4 ص 1253.

(4) ابن بشكوال: الصلة، ج 2 ص 453.

(5) ابن فرحون: الديباج، ج 2 ص 28.

النقيبة [1] ولذلك اختص من بين مالكية الغرب الإسلامي بلقب القاضي، كما اختص عبد الوهاب بلقب القاضي من بين مالكية المشرق.

كما تحمّل القاضي عياض مهمة مدافعة الموحدين عن مدينته سبتة، ثم الانتفاضة ضدهم وتجديد الولاء للمرابطين [2]، ويقال أنه كان من المعبئين لثورتها ضدهم كما قال ابن خلدون: " إذ كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه"[3]، مما جعل الموحدين المنتصرين ينقمون عليه على الرغم من حمله بيعة سبتة لهم [4]، وهو ما دفعهم إلى تغريبه[5]، وتوليته القضاء ببادية مراكش.

5- وفاته:

توفي القاضي عياض مغرّباً عن وطنه بأمر السلطة الموحدية التي لم تغفر له تحريضه الناس عليها ببلده سبتة، فمات في سنة (544ه) في رمضان بمراكش، وقد رُويت أخبار أنه مات مسموما [6]، ولا يبعد ذلك نتيجة للبدايات الدموية للسلطة الموحدية التي لم تغفر لمناوئيها معارضتهم الخفية أو الجلية، ودفن بباب إيلان بمراكش بالمغرب الأقصى.

(1) التعريف بعياض، ص 10/ الديباج، ج 2 ص 27/ ابن بشكوال: الصلة، ج 2 ص 453

(2) انظر محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، ص 35/ دنش عصمت: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص 33.

(3) ابن خلدون: كتاب العبر ج 6 ص 271/ السلاوي: الاستقصاء ج2 ص 114/ ابن عذاري: البيان (قسم الموحدين) ص 32/ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 191.

(4) التعريف بعياض، ص 11

(5) البيدق: أخبار المهدي، ص 123/ بولطيف لخضر: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية، ص 147.

(6) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 191/ ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 271/ وفيات ابن قنفد، ص 280

المطلب الثاني: الآثار العلمية للقاضي عياض.

تعددت الآثار العلمية لعياض، فقد كان من جلّة المتفننين في مختلف حقول المعرفة الشرعية والتاريخية واللغوية، والمستقريء من كتب مترجميه أنه خلّف ما يأتي:

1-في الحديث وعلومه:

-**الشفا في التعريف بحقوق المصطفى:** أشهر مؤلفات القاضي عياض، وأكثرها تداولا بين الناس، وهو كتاب في شمائل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قيل فيه: لولا الشفا لما عُرف المصطفى، ولولا عياض لما عُرف المغرب".

وقد أُتهم الإمام ابن تيمية بانتقاص عياض ونقد كتابه هذا فيما نُسب إليه من مقولة:" لقد غلا هذا المغيربي"، وربما يكون مرد هذه المقولة من ابن تيمية الاختيارات العقدية لعياض وتشديده على قضايا العصمة النبوية في مناكفة كبيرة لدعاوى الانتقاص من الأنبياء[1]، في استعادة قوية لمذهب الأشاعرة ضد خصومهم المعتزلة أو الحنابلة الذين ينتمي لهم ابن تيمية في اختياراتهم العقدية. مما جعل النكير يشتدّ على ابن تيمية في هذه المقولة التي حاول بعضهم نفيها عنه، لكون ابن تيمية من المقتصدين في قضايا العصمة في إطار حجاجه ونقده لمقالات الشيعة في عصمة الأئمة الاثني عشر.

وقد نقل الكتاني شرر تلك المقالة حيث قال: "ومن أشنع ما نُقل عن ابن تيمية أيضاً قوله في حق شفاء القاضي "غلا هذا المغيربي"، وقد قال في ذلك شيخ الإسلام بإفريقية الإمام العَلَم أبو عبد الله ابن عرفة التونسي[2]:

شفاء عياض في كمال نبينا ** كواصف ضوء الشمس ناظر قرصها
فلا غرو في تبليغهِ كُنْهَ وصفِه ** وفي عجزه عن وصفه كنه شخصها

(1) الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص 157.

(2) ابن عرفة التونسي (803هـ). انظر: الديباج، ج2 ص263/ شذرات الذهب، ج7ص37/ البستان ص190/ شجرة النور (817)، ص227/ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (513)، ج2 ص195.

وإن شئت تشبيهاً بذكر أمارة ** بأصلٍ ببرهانٍ مبينٍ لنقصها
وهذا بقولٍ قيل عن زائغ غلا ** عياضٌ فتبّت ذاته عن محيصها

ذكرهم له تلميذه البسيلي في تفسيره، والمقري في أزهار الرياض"[1].

كما أن مترجمه الكبير العلامة الموسوعي الجزائري أبا العباس المقري قال فيه: " بلغ به الغاية القصوى، وكان فيه لضرب الإحسان مرتشفا، وبزّ فيه المؤلفين وأربى، وحاز قصب السبق دونهم وطار صيته شرقا وغربا، وقد لهجت به العامة عجما وعربا، ونال به مؤلفه وغيره من الرحمان قربا، وفضائل هذا الكتاب لا تستوفى، ويرحم الله القائل[2]:

كلهم حاول الدواء ولكن ** ما أتى بالشفا إلا عياض

وأما مترجم المالكية الكبير ابن فرحون فقال في تحلية نادرة في الديباج:" أبدع فيه كل الإبداع وسلّم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم يُنازعه أحد في الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه، وحمله الناس، وطارت نسخه شرقا وغربا"[3]

وأما صاحب أول موسوعة في تأريخ العلوم الإسلامية حاجي خليفة فقال فيه:" وهو كتاب عظيم النفع، كثير الفائدة، لم يؤلف مثله في الإسلام. شكر الله سبحانه وتعالى سعي مؤلفه، وقابله برحمته، وكرمه"[4].

- إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم:

كُتب للمغاربة الريادة في شرح صحيح مسلم [1] مع عَلَمين كبيرين أحدهما تونسي، وهو الإمام المازري في كتابه المعلم بفوائد مسلم، والثاني لمغربي هو القاضي عياض في كتابه "إكمال المعلم".

(1) انظر عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، ج 1 ص 277/ المقري: أزهار الرياض، ج 5 ص 10.

(2) المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج4 ص 271.

(3) ابن فرحون: الديباج، ج1 ص 49.

(4) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 2 ص73.

أما الأول فهو الإمام المجتهد أبي عبد الله بن محمد بن علي المازري (ت536 ه) [2]. والذي يُعد شرحه أساسا لمن بعده، فمن الناحية العلمية يعتبر كتاب المعلم الأساس الذي بنى عليه شراح مسلم كتبهم وأفادوا منه، وعليه مدار تصنيفاتهم، وقد تسلسلت مصنفات المغاربة عليه بين إكمال وتكميل لمدة خمسة قرون، كما أفاد منه المشارقة كالنووي (ت676 ه) في المنهاج، وكذا ابن حجر (852 ه) في فتح الباري، والسيوطي (911ه) في الديباج [3].

أما الكتاب الثاني الذي حاكى الأول فهو للقاضي عياض، والذي جارى فيه المازري وسماه:" إكمال المعلم بفوائد مسلم"، فكان أكثر تميّزا في تفسير صحيح مسلم لأنه احتفّ بكتب أخرى خدم بها القاضي الحديث، وهو بالاتفاق أرسخ قدما في هذا الفن من المازري.

انفرد عياض في عمله بإكمال عملين سابقين عليه، أولهما كتاب المعلم للمازري السالف ذكره، والثاني "تقييد المهمل وتمييز المشكل"، لأبي علي الحسين الجياني (498 ه) [4] إذ أفاد من هذا الأخير في دراسة العلل الواردة على أسانيد مسلم.

امتاز تفسير عياض لصحيح مسلم بجملة مميزات تجعله يبُزّ المنهاج للنووي فيما بعد، وذلك باعتراف النووي ذاته في النقل عن عياض كثيرا، ومن تلك المزايا:

- الإلمام بالقضايا السندية والحديثية التي أوردها مسلم في صحيحه، ولم يعرّج عليها المازري، وبرزت عارضة عياض في شرح هذه المقدمة لمكانته العالية في علم

(1) الشاذلي النيفر: مقدمة كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، ص184.

(2) في ترجمة الإمام المازري راجع: الديباج، ج2ص196/ شجرة النور (371) ص127/ سير أعلام النبلاء، ج12ص57/ وفيات الأعيان، ج 4 ص109/ شذرات الذهب، ج4 ص114/ معجم المؤلفين، ج3 ص525.

(3) الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص 119.

(4) في ترجمة الجياني انظر: الديباج، ج1ص293/ بغية الملتمس، ص265/ سير أعلام النبلاء، ج11ص403/ وفيات الأعيان، ج 2 ص154/ شذرات الذهب، ج8ص408/ معجم المؤلفين، ج1ص633.

المصطلح، وكذا من خلال الكلام على بعض الرجال والأسانيد والعلل غير القادحة الواقعة في بعضها مما أغفله الجياني دون التوسّع والاستقصاء.

– شرح الأحاديث التي لم يتعرض لها المازري وهي كثيرة جدا، بحيث يندر أن نجد حديثا لم يشرح بعض ألفاظه إلا أن يكون مكررا، وذلك ببيان المعاني وضبط الألفاظ واستنباط الأحكام الفقهية والفوائد المختلفة، وبيان الغامض وتقييد المهمل والتنبيه على اختلاف ألفاظ الرواة، وكذا الاستدراك والتعقيب على السابقين[1].

– الاهتمام بالجمع بين الأحاديث المتعارضة، وتأويل مختلف الأحاديث إن تعذر الجمع.

– الاعتناء بالنواحي العقدية، والرد على الفرق المعارضة، ونحو ذلك في نواحي الصفات والعصمة، وذلك في مثل حديث الصورة، "فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون"[2]. قال: مقابلة لفظ الصورة هنا التي المراد بها حق الله الصفة– على ما تقدم– للفظة الصورة الحقيقية الواردة في صفة الملك والمخلوق، وتجنيس اللفظ باللفظ كما قال تعالى: ﴿مستهزؤن الله يستهزئ بهم﴾[3]. وقوله تبارك وتعالى:﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾[4]. وقد جاءت هذه اللفظة في البخاري: فيأتيهم الله في الصورة التي لا يعرفونها، وفي الصورة التي يعرفون" من غير إضافة، وهي أبين وأقرب لتأويل الصفة، والصورة ترجع في اللسان إلى معنى الصفة ومعنى الحقيقة، وإليه يرجع قوله: الصورة التي رأوه فيها أولا، أي علموا من تنزيهه وتقديسه، واعتقدوه من أنه لا يشبهه شيء، وقد زلّ من لم يحصل كلامه مما تقدم، فأثبت صورة لا كالصور، وهذا تناقض وتجسيم محض، نعوذ بالله"[5].

(1) الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص 168.

(2) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، رقم 182/صحيح البخاري: كتاب الرقاق، رقم 6573.

(3) سورة البقرة الآيات 14–15.

(4) سورة آل عمران الآية 54.

(5) القاضي عياض: إكمال المعلم، ج1، ص 548.

– توسع هذا الكتاب في قضايا التفسير وعلوم القرآن، مما يمكن أن يُعتبر مرجعا ومصدرا في هذا الفن من العلوم الخادمة للقرآن الكريم.

– الاهتمام بالقضايا الفقهية وتوجيهها على مذهب الإمام مالك، مما يمكن عدّه أحدَ مراجع الفقه الملتصق بالدليل على العكس من المصنفات المالكية المتقدمة.

وبالجملة فهذا الكتاب يعدّ مرجعا أولا في شرح صحيح مسلم، وعليه بنى المتأخرون تفسيراتهم، فكلهم عالة عليه مثل النووي في المنهاج، والأبي الوشتاني (827 ه)[1] في إكمال الإكمال. وعلى الجملة فالكتاب دال على تميز المغاربة واعتزازهم بصحيح مسلم، حيث شرحه واحد وعشرون منهم، وعلّق عليه خمسة، وألف في تفسير غريبه ثلاثة، وصنف حول رجاله استقلالا ثلاثة، ومع رجال الصحيح أربعة، واختصره ستة، وألف في زوائد على البخاري اثنان، وصنف في الجمع بينه وبين غيره اثنا عشر[2].

لقد أظهر عياض تميّزا جديرا بالنظر في تفسيره لمسلم، وهو وإن استدرك وأكمل معلم المازري إلا أن جهده في هذا الشرح الفريد يكاد يجعل الكتاب سامقا في الإحاطة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، واستنباط الفوائد منها، ومزج الفقه بالدليل وبناء الصورة العقدية على مدلول السنّة بدلا عن تمحّلات المتكلمين، وهو في النهاية تفسير حوى فنون اللغة والبلاغة والتفسير والفقه والأخلاق.

– **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**: كتاب معجمي في شرح وضبط الغريب من الصحيحين والموطأ، وضبط الأسماء والكنى والألقاب والأنساب والأماكن، ونفي التصحيف، ومما قيل فيه:

مشارق أنوار تجلّت بسبتة ❊❊ ومن عجب كون المشارق بالغرب.

–الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع: من الكتب المتقدمة في علم الدرايه عند المغاربة، وهو من الكتب المؤسّسة لعلوم المصطلح المضاهية لكتب الخطيب البغدادي حافظ المشرق.

(1) في ترجمة الأبي الوشتاني انظر: شجرة النور (874)، ص244/ معجم المؤلفين، ج3ص278.
(2) الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص406

-**بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد** [1]: في شرح حديث أم زرع المشهور [2]، وقد أفاد منه ابن حجر في شرحه على الحديث [3]، وكذا السيوطي في "غاية النفع في شرح حديث أم زرع"، والبعلي الحنبلي وغيرهم.

2- **في التراجم والطبقات:**

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: كتاب أولي في طبقات المالكية.

- الغنية: (ترجمة لمائة من شيوخه) وهو من كتب الفهارس والبرامج الأولى في هذا الفن في الغرب الإسلامي.

3- **في القضاء والنوازل**: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، وسر السراة في آداب القضاة، ومطامح الأفهام في شرح الأحكام، وهي كتب في القضاء والنوازل مفقودة ذكرها ولده في التعريف [4].

4- **في التاريخ**: الجامع في التاريخ، والعيون الستة في أخبار سبتة، تاريخ المرابطين، وهي كتب في التاريخ [5].

5- في **اللغة والأدب**: سؤالات وترسيل، غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدر والترسيل. كتاب ومجموع خطبه. وهي مفقودة.

6- **في العقائد**: السيف المسلول على من سبّ أصحاب الرسول، وكتاب العقيدة، وهما مفقودان.

7- **في الفقه**: الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (طبع) [1]، أجوبة القرطبيين، التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة، المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان،

(1) طبع بتحقيق سعد عبد الباقي علي، بيروت، المكتبة العلمية، 1424ه.
(2) صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، رقم 4893.
(3) انظر ابن حجر: فتح الباري، ج 9 ص 164.
(4) ابن عياض: التعريف ص118 / الديباج، ج 2 ص 29
(5) أزهار الرياض ج 5 ص5/ التعريف ص 117

نظم البرهان على صحة جزم الآذان، مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور، الأجوبة المحبرة على المسائل المتخيرة[2].

المطلب الثاني : المذهب العقدي للقاضي عياض.

عياض من رؤوس المذهب المالكي، ومن مقعّدي المدرسة المغاربية، كما أنه أحد أركان وأسس وقناطر الأشعرية في نهايات العصر المرابطي شأنه شأن شيخه أبي بكر بن العربي(543ه)، وشيخه العلامة أبي الحجاج الضرير(520ه) [3] الذي أخذ عنه الأرجوزة الكبرى "التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد"[4]، وقد نال سبق الإمامة في هذا المضمار بسبب تبحره في أصول الحديث التي عُد بها رأسا لم يدانيه في ذلك إلا ابن القطان المتأخر(628ه).

وفي ذلك يقول الباحث المتخصص في تراثه الحديثي الحسين شواط:"كان عياض رحمه الله إماما في أصول الدين والعلوم المتعلقة بها، متكلما بارعا، قوي الحجة واضح البرهان، ولكنه يكره الكلام والخوض في الجدل في العقائد لغير حاجة، وقد تلقى هذا العلم على كبار علماء عصره ودرس فيه أهم مصادره... وزخرت مصنفاته بمباحث محررة تتعلق بهذا الباب وتدل على إمامة القاضي فيه؛ وبخاصة في كتابيه الشفا وإكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، فقد عني عياض رحمه الله عناية كبرى بإثارة الفوائد المتعلقة بمسائل الاعتقاد مع البسط والتحرير والتوسع والتحقيق"[5]

دافع عياض كثيرا عن اللحظة الأشعرية التي رأي بأنها المعبّر الحقيقي عن أهل السنة، وأن أسلحتها الكلامية كفيلة بإخماد البدع المحدثة من غلاة الفرق الأخرى، فقال مدافعا عن فرادة الأشعري: "وصنف لأهل السنة التصانيف وأقام الحجج على

(1) على منواله محمد الصالح بن مهنا كتابع قواعد الإسلام. وتابعه في بعض آرائه المتشددة في العمل بالأركان.؟

(2) التعريف ص 130-148/ الديباج ج 12 ص 29/ الأزهار ج 5 ص 6-12

(3) - عياض: الغنية، ص 25

(4) انظر عنها أيضا احنانة يوسف: تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي، ص77.

(5) الحسين شواط القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص186.

إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر مما نفت المعتزلة وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجة الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة، وناظر المعتزلة وكان يقصدهم بنفسه للمناظرة"[1]. وفي تراجمه لأعلام الأشاعرة حلاهم بكل فضيلة في الانتصار للسنة والذب عنها[2].

وفي تبرير التسمية الأشعرية والدفاع عنها بعد التلكؤ الأندلسي والمرابطي في الانخراط المذهبي والحذر من تلون المذهب المالكي بنزعات علم الكلام، على الرغم من فتوى ابن رشد الجد[3]، يقول عياض : "بعد أن ألف أبو الحسن الأشعري، وكثرت تواليفه، وانتفع بقوله، وظهر لأهل الحديث والفقه ذبُّه عن السنن والدين، تعلق بكتبه أهل السنة وأخذوا عنه، ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذب عن السنة وبسط الحجج والأدلة في نصر الملة، فسموا باسمه، وتلاهم أتباعهم وطلبتهم، فعُرفوا بذلك، وإنما كانوا يُعرفون قبل ذلك بالمثبتة سمة عرفتهم بها المعتزلة؛ إذ أثبتوا من السنة والشرع ما نفوه، فبهذه السمة أولا كان يعرف أئمة الذب عن السنة من أهل الحديث"[4].

ويقول محقق كتابه "الترتيب" العلامة ابن تاويت الطنجي : "احتجاج عياض المتكرر في كتاب الشفا بآراء أبي الحسن الأشعري والقاضي أبي بكر الباقلاني وأبي بكر ابن فورك وأبي المعالي إمام الحرمين الجويني يثبت كل ذلك صلته الوثيقة بمذهب الأشعرية وبكتبهم، وقراءاته لمؤلفاتهم في الاعتقاد ووصفه للباقلاني وأبي بكر ابن فورك بقوله (من أئمتنا) دال على أنه أشعري المذهب. ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة والفرق الاعتقادية الإسلامية على اختلاف مذاهبها وللفلاسفة والصوفية

(1) ترتيب المدارك،ج 5 ص 24

(2) انظر ترجمة ابن مجاهد مثلا ج 5 ص 196/ ترجمة الباقلاني ج7 ص 44

(3) في فتوى ابن رشد انظر محمد الأمين بلغيث: الحياة الفكرية بالأندلس، ج 1 ص 390.

(4) عياض: ترتيب المدارك ج 2 ص 25.

والخوارج- تطلع الدارس لعياض على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية وآراء أصحابها.. وصلة القاضي عياض بعلم الكلام وما يتبعه من جدل ومناظرة ومعرفته بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه، تصل بنا إلى أن المدرسة التي أخرجت القاضي عياضا وشيوخه الذين تعلم عليهم الكلام وأصول الدين، وكثير من العلماء المغاربة الذين اشتغلوا بعلم الكلام واشتهروا به وترجم لهم في ترتيب المدارك – نقول هذه المدرسة كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري، وأن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب"[1].

ومواقفه العلمية السنية المحضة تلك هي التي جعلته يتواجه مع السلطة الموحدية الجديدة أيام قيامها على أنقاض الدولة المرابطية[2]، على الرغم من ادعاء ابن تومرت للأشعرية لما مزجه في دعوته من قضية العصمة المنافية للمقالات الأشعرية.

تضمنت مصنفات عياض جملة وافرة من المباحث المتعلقة بعقائد أهل البدع والرد عليهم، وهو في الغالب لا يذكر ذلك ابتداء، وإنما يسوقه تبعا لما يقرره من عقيدة أهل السنة. وهو يستفيد من كل مناسبة للرد على أهل الأهواء، وقد يضيف إلى ذلك فوائد أخرى عنهم كالتعريف ووجه التسمية والمصادر التي تتضمن الكلام على معتقداتهم ونحو ذلك. وتعتبر كتب عياض رافدا مهما لكتب مقالات الفرق والملل والنحل. وقد تناولت ردود القاضي نقولات عن معظم الفرق الكبرى المعروفة غير أنه قد ركز بصفة خاصة على نقض مقالات المعتزلة في تحكيمهم العقل على الشرع، كما رد على الخوارج والشيعة والكرامية والسالمية والمجسمة والجهمية وغلاة المتصوفة.

(1) ابن تاويت: مقدمة ترتيب المدارك ج 1 ص 12.

(2) انظر بولطيف لخضر: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص 147.

المطلب الرابع : مكانة كتاب الشفا عند الجزائريين.

يعتبر الشفا من الكتب السائرة في الزوايا والمعاهد الجزائرية، ولا يدانيه في مكانته من الكتب المتقدمة إلا الموطأ والبخاري، ومن الكتب المتأخرة عقائد السنوسي ومختصر خليل.

وتنوعت هذه المكانة بين حقول كثيرة أهمها الشرح، والإقراء، والمدارسة، والإسناد، والسرد في موسم المولد النبوي الشريف، والاستشهاد به كمرجع أعلى في المذهبية المالكية، وسنعرض لنماذج من هذه الخدمة لهذا المصنف:

أ/ الشرح: تفيدنا كتب التراجم والطبقات وغيرها بعدد من الشارحين وغيرهم، ومنهم:

*ابن مرزوق محمد بن أحمد شمس الدين الجد الخطيب التلمساني (781ه): شرح الشفا للقاضي عياض، ولم يكمله [1]، وسماه" برح الخفا في شرح الشفا"[2]، وأهداه للسلطان أبي الحسن المريني.

* أبركان الراشدي: أبو عبد الله محمد بن أبي علي الحسن بن مخلوف (868ه): شرح الشفا الكبير وسماه "غنية أهل الصفا في شرح الشفا، والشرح المسمى بالغنية الوسطى، ولعله تيمن بغنية عياض، والشرح الصغير وسماه "غريب الشفا"[3].

*الشمّني أحمد بن محمد بن خلف أبو العباس القسنطيني الحنفي (872ه) [1]: له" مزيل الخفا على كتاب الشفا"[2].

(1) ابن مريم: البستان، ص 184/ الديباج المذهب، ج2 ص 228/ كفاية لمحتاج ج 2 ص 89/ شذرات الذهب ج 6 ص 271/ فهرس الفهارس، ج 1 ص 394/ شجرة النور، رقم 849 ص 236/ نفح الطيب، ج5 ص 390/ هدية العارفين، ج 2 ص 170/ درة الحجال، ج 2 ص 284/ معجم أعلام الجزائر، ص 289/ تاريخ الجزائر العام ج 2 ص 190.

(2) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج 6 ص 271. وقال إن منه نسخة بمكتبة جوته بألمانيا.

(3) البستان، ص 220/ شجرة النور (964) ص 262/ معجم أعلام الجزائر، ص 14/ تاريخ الأدب العربي، ج 6 ص 271.

* ابن زكري أحمد بن محمد المانوي التلمساني (899هـ)[3]: حاشية على الشفا.

* التلمساني محمد بن أبي علي بن أبي الشريف (921ه) [4] في شرحه الموسوم" المنهل الأصفى في شرح ما تمس إليه الحاجة من ألفاظ الشفا"[5]، وقد عرضه شيخه ابن غازي وشكره، وقال: طالعت بعض هذا المجموع فأعجبني وذلك عام (918ه).

قال في كشف الظنون: واعتمد فيه شرح الحافظ عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يحيى الزموري، فاقتطع منه ما تمس إليه الحاجة، وترك ما فيه من طول عبارته. وأضاف إليه كثيرا من كلام الحافظ، أبي عبد الله: محمد بن حسن بن مخلوف الراشدي بأبركان، إذ وضع عليه: قال: ومرادي بالشارح حيث ذكرت الإمام: عبد الله بن أحمد الزموري ...، ومن كلام الشمني، وابن مرزوق "[6].

(1) انظر شذرات الذهب، ج 7 ص 313/ الضوء اللامع، ج 2 ص 174/ البدر الطالع، ج1 ص 72/ معجم المؤلفين، ج 2 ص 149/ كشف الظنون، ج 2 ص 1045/ تاريخ الجزائر العام، ح 1 ص 218.

(2) ضيف بشير: فهرست معلمة التراث الجزائري ص 97. وطبع بهامش الشفا في دار الكتب العلمية.

(3) ابن زكري: انظر البستان، ص38/ ابن عسكر: دوحة الناشر ص199/ الونشريسي: الوفيات، ص153/ شجرة النور (987) ص264/ تعريف الخلف، ج1 ص45/ الفكر السامي، ج 4 ص 87.

(4) عنه انظر: معجم أعلام الجزائر، ص79/ شجرة النور (1032) ص 276/ نيل الابتهاج، ص 336/ معجم المؤلفين، ج 3 ص 514/ الأعلام، ج 6 ص 289/ تاريخ الأدب العربي، ج 6 ص 270.

(5) توجد منه نسخة الخزانة العامة بالرباط، رقم ك 340. وبالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 2113

(6) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج 2 ص 1504. وعن الزموري الدكالي انظر نيل الابتهاج، ص 161/ هدية العارفين، ج 1 ص 473.

* البوني أحمد بن قاسم (1193ه) [1]: اختصار شرح الشهاب للخفاجي على كتاب القاضي عياض [2].

*أحمد بن عمار الجزائري(1205ه) [3]: حاشية على شرح الخفاجي للشفا [4]. وأهمية ابن عمار تعود إلى كونه أحد صناع الموشحات المولدية التي لا تزال تنشد في العاصمة، وقد ذكر انشداده لهذا الفن بقوله:" هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر، أنه إذا دخل شهر ربيع الأول، انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعوّل، إلى نظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات، ويلحنونها عن طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرؤنها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة...."[5]

ب/ الإقراء والمدارسة: جرت عادة إقراء الشفا وشرحه في مختلف المعاهد والمساجد والزوايا، فالشفا كان من البرامج الرسمية في مختلف المعاهد مع مختصر ابن أبي جمرة للبخاري [6]، بل كان البعض يعقد له مجالس خاصة كما هي الترجمة للكثيرين [7].

(1) البوني أبو العباس أحمد بن قاسم (1063-1139ه-/1653-1726م)، انظر شجرة النور رقم 1289 ص 330/ تعريف الخلف، ج 2 ص 376/ أحمد البوني: الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، ص118.

(2) ضيف بشير: فهرست معلمة التراث الجزائري ص 96.

(3) أحمد بن عمار (1205ه-1790م)، انظر تعريف الخلف، ج 1 ص 340 / معجم أعلام الجزائر، ص 97/ فهرس الفهارس، ج 1 ص 82/ الأعلام، ج 1 ص 178/ تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص 230.

(4) أبو راس المعسكري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربه ونعمته، ص33.

(5) الحفناوي: تعريف الخلف، ج 1 ص 340.

(6) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ص 350.

(7) ابن مريم: البستان ص 151.

وممن كان يعتمده في برامج التعليم العالي في العاصمة الشيخ علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي[1] شيخ عيسى الثعالبي ويحي الشاوي وعمر المانجلاتي، فقد كان الشفا مقررا في الجامع الأعظم بالجزائر[2].

وفي البرامج التلمسانية كان الشفا مقررا في الدروس العالية للنخبة، ففي ترجمة عبد الله بن الإمام أبي عبد الله الشريف التلمساني (792ه) أنه قرأ وزملائه على أبيه جملة من الكتب منها الشفا لعياض[3].

ووجدنا لازمة إقراء الشفا للجزائريين حتى وهم لاجئون أو وافدون على المشرق، فمن ذلك أن الأمير عبد القادر أيام إقامته بالشام اشتغل بالحديث، وكان يدرّس في المشهد الحسيني في الجامع الأموي، وفي المشهد السفرجلاني كتاب الشفا للقاضي عياض[4].

ج/ الإجازة السندية:

وكان الشفاء يؤخذ بالسند والإجازة، ومن نماذج ذلك ما ذكرناه عن شارحه ابن أبي الشريف صاحب المنهل الأصفى الذي أخذ الإجازة فيه من ابن غازي المكناسي.

ومن النماذج السندية ما كان في محاضر توات ومعاهدها العلمية، ففي ترجمة عبد الرحمان الجنتوري أنه: أخذ المختصر، وجمع الجوامع، والسلم، والتلخيص، ولامية الأفعال، ودروسا من صحيح البخاري، وقرأ الشفاء...."[5].

د/ السرد في الموالد: كما كانت له مواسم يقرأ فيها سردا شأنه شأن الموطأ والبخاري في المواسم المعروفة في المولد النبوي ورمضان، كما هي العادة السارية في

(1) شجرة النور (1193) / المحبي، ج 3 ص 137/ نفح الطيب، ج 3 ص 236/ الأعلام، ج 4 ص 309.

(2) تعريف الخلف، ج 2 ص 127/ تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1ص 378.

(3) البستان، ص 164/ الحفناوي: تعريف الخلف، ج 2 ص 56.

(4) محمد باشا بن الأمير: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج 2 ص 100.

(5) محمد باي بلعالم: الرحلة العلية ج1 ص 173.

محاضر وزوايا توات بالجنوب الجزائري، وخاصة في زواية العلامة الشيخ باي بلعالم عليه رحمة الله.

ومن نماذج ذلك إنشاء القصائد والصلوات المقتبسة من خطاطة كتاب الشفا، ومن نماذج ذلك ياقوتة الصفا في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للصوفي قدور بن محمد بن سليمان المستغانمي (1904م) [1]، وهي مجموعة مديحية في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان خصائصه وشمائله، وحقوقه الواجبة على المسلم.

ه/ الاستشهاد المرجعي: كما هو في عديد المدونات الجزائرية التي تأخذ من عياض وشفائه مرجحا في الاختلاف، كما هو الشأن في معركة ردّ إيمان المقلد، والتي ثارت في الجزائر بعد أن صدح بهذا الرأي الإمام ابن يوسف السنوسي، كما هو الشأن في عمل الوهراني محمد بن شقرون [2] في كتابه" الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين"[3] حيث حضر عياض كثيرا في ردوده ونقوضه.

ومن المتأخرين المتأثرين بمسلك القاضي عياض العلامة ابن مهنا القسنطيني في كتبه، وفي حاشيته على الرحلة الورثلانية، حيث استشهد لرأيه في الإخلال بالعمل والتهاون في الواجبات الذي ضرب قطاعا من الطبقات العلمائية والصوفية الذين وصفهم بأنهم: جمعوا بين الإخلال بالعلم والعمل، فالمخلّ بالعمل فاسق مغضوب عليه، والمخلّ بالعلم جاهل ضال"، واستدعى لرأيه أقوال عياض في قواعده: "وذهب بعض العلماء إلى أن من ترك شيئا من هذه القواعد وإن اعترف بوجوبها فإنه كافر"[4]،

(1) تعريف الخلف، ج 2 ص 154/ معجم أعلام الجزائر، ص 297/ تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7 ص 137.

(2) عن محمد شقرون انظر: البستان، ص 115 / نيل الابتهاج، ص 581/ درة الحجال، ج 1 ص 93/ شجرة النور، ص 277/ معجم أعلام الجزائر، ص 189.

(3) الكتاب اعتنى في دراسة ماجستير أخونا الدكتور يوسف عدار في جامعة الجزائر 1 سنة (2000).

(4) عياض: الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (تح محمد صديق المنشاوي)، ص147

بل وجدناه يؤلف كتابا في القواعد كتابا ضاهى به قواعد القاضي عياض، وكان على سنَنَه ومنواله[1].

ومن قبل ورد في أخبار الإمام سعيد المقري[2] أنه ألف خطبة بأسماء سور القرآن الكريم عارض بها خطبة عياض كما قال ابن أخيه أحمد المقري[3].

و/ **التوسل**: وذلك في الغوثيات التي انتشرت في الجزائر أياك الحكم العثماني والاحتلال الفرنسي، فقد وجدنا الإمام ابن مهنا في محنته مع الحكومة الفرنسية سنة (1897) يؤلف غوثية توسل فيها بالأولياء المترجم لهم في الرسالة القشيرية، وبكتب الحديث والشفا، جاء من ضمنها:

بالبخاري سيدي** وبمسلم سندي

والشفاء معتمدي ** خيب يا رب سعيهم.

ز/ الترجمة والتأريخ: وهو ما صنعه أحمد بن محمد المقري في موسوعته الحافلة " أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض"، وهي أهم ترجمة حافلة للقاضي، بل إنها من التراجم المعدودات في المكتبة الإسلامية، فقلّ أن يوجد لها نظير، إذا ما قورنت بالكتب المنقبية والطبقاتية. وقيل إن هذه الترجمة الواسعة كانت بطلب من سكان تلمسان رغبة في التعرف على أهم حجج المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي[4].

وقد قسم هذه الموسوعة المنقبية والأدبية إلى ثماني رياض هي :روضة الورد في أولية هذا العالم الفرد، وروضة الأقحوان في ذكر حاله في النشأة والعنفوان، وروضة

(1) الصيد سليمان: ابن مهنا القسنطيني، ص 176.

(2) عن سعيد المقري نظر: نيل الابتهاج، ص 420/ صفوة من انتشر، ص 101/ نفح الطيب، ج 5 ص 203/ البستان، ص 104/ شجرة النور، ص 295/ معجم أعلام الجزائر، ص 311/ نشر المتاني، ج 1 ص 131/ تاريخ سعد الله، ج 1 ص 378/ باقة السوسان في التعريف بحضرة تلمسان، ج 2 ص 154.

(3) المقري: نفح الطيب، ج 10 ص 194.

(4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص 360.

البهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار، وروضة المنثور في بعض ما له من منظوم ومنثور، وروضة النسرين في تصانيفه العديمة النظير والقرين، وروضة الآس في وفاته وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه من آس، وروضة الشقيق في جمل من فوائده ولمع من فرائده المنظومة نظم الدر والعقيق، وروضة النيلوفر في ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر.

كما تابع المقري عمل القاضي عياض في الاعتناء بالجناب المحمدي، فألف في الاهتمام بالشمائل والخصائص المصطفوية في عدة أعمال مثل: أزهار الكمامة في شرف العمامة، الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين، النفحات العنبرية في مدح نعال خير البرية، فتح المتعال في مدح النعال.[1].

المطلب الخامس : التكوين والنظم العام لكتاب الشفا.

بنيت هندسة هذا الكتاب العظيم النفع الذائع الصيت من فصول متوازنة.

قسمان تمهيديان قواعديان هما الأول والثاني:

القسم الأول: في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي وفيه أربعة أبواب:

الأول: في ثنائه تعالى (10 قصول)

الثاني: في تكميله – تعالى – له المحاسن خَلْقَا، وخُلُقا. (27 فصل)

الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار، لعظم قدره عند ربه. (12 فصل)

الرابع: فيما أظهره الله على يديه، من الآيات، والمعجزات (30 فصل)

القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه، وفيه أربعة أبواب:

الأول: في فرض الإيمان به، والطاعة (5 فصول)

الثاني: في لزوم محبته، ومناصحته (6 فصول)

(1) عن المقري (1041ه-1632 م) انظر: شجرة النور رقم 1162 ص 300/ تاريخ الجزائر الثقافي ج 2 ص 212/ معجم المؤلفين ج 1 ص 248/البستان ص 155/ تاريخ الجزائر العام ج 3 ص 147/ تعريف الخلف ج 1 ص 51/ معجم أعلام الجزائر، 309.

الثالث: في تعظيم أمره، ولزوم توقيره (7 فصول)

الرابع: في حكم الصلاة عليه (10 فصول)

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوز، وما يمتنع ويصح. (2 أبواب)

الأول: فيما يختص بالأمور الدينية (16 فصلا)

الثاني: في أحواله الدنيوية (9 فصول)

والقسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام، على من تنقّصه أو سَبَّه (3 باب)

الأول: في بيان ما هو في حقه سب ونقص (10 فصول)

الثاني: في حكم شانئه، ومؤذيه، وعقوبته.

الثالث: حكم ساب الله تعالى، ورسله، وملائكته، وكتبه، وآل النبي (5 فصول)،

وهو الفصل الذي استمدت منه باقي المصادر التي اعتنت بالجناب المحمدي مثل الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية وكذلك في فتاويه، وللتقي السبكي في السيف المسلول على شاتم الرسول، وابن حجر الهيتمي وغيره، وكذا لمن كتب في الخصائص والشمائل كالسيوطي، والقسطلاني، والشعراني، والنبهاني، وغيرهم.

الخاتمة والنتائج

يمكن الخلوص إلى ريادة القاضي عياض العلمية في كتابة نص تأسيسي في الثقافة الإسلامية وهو الشفا، والذي تعد فصوله حصونا منيعة في الذود عن حرم النبوة وخصائص صاحبها، وقد أبرز القاضي في خاتمته براعة علمية في التأسيس لقواعد قاطعة في التعامل مع مقام النبوة العظيم.

ولأجل هذه الريادة أخذ الكتاب القدح المعلى في العناية الجزائرية بميدان السيرة النبوية والشمائل المحمدية، فكان الإقراء له والمدارسة في المعاهد العالية، والإجازة به ديدنا لا تخلو منه البرامج والفهارس والأثبات، كما خدمه العلماء الجزائريون بخدمات جلّ أهمها الشروح والحواشي والاختصار والنظم، إضافة إلى التأريخ لهذا النص وصاحبه كما فعل المقري في الأزهار، كما أبدع الجزائريون في سرده في المولد النبوي كفعلهم في سرد البخاري في رمضان.

إن البحث يخلص إلى إبراز معالم المكانة الأدبية والعلمية لعياض وكتابه الشفا، والتي كان من نتائجها البارزة ترسيخ السيرة النبوية، وتعميق حبّ الجناب المحمدي، والأدب معه، ومع سنته، ومعرفة حقوقه، والتأسي بأخلاقه، وهو ما أثمر مجتمعا جزائريا متمسكا بهويته الدينية، فلم تفلح معه دعوات الانحراف في باقي الأيام.

والذي يوصي به الباحث من نتائج هو ما يأتي:

- ضرورة العودة للنصوص التأسيسية لأئمة المالكية المتقدمين.
- قراءة المدونات الفقهية التطبيقية ونقدها انطلاقا من النصوص التأسيسية.
- الاهتمام بكتاب الشفا، وإبراز ريادته في صياغة المنظومة العقدية السنية.
- كشف الريادة الجزائرية في الاعتناء بكتاب الشفا قراءة وشرحا وحضورا في المدونات.
- الكشف عن الآثار التربوية لكتاب الشفا في صياغة وصيانة وحصانة الهوية الدينية.
- إقامة بحوث ببليوغرافية للجهود الجزائرية في ميدان السيرة والشمائل والخصائص.

المصادر والمراجع

-احنانة يوسف: تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي. المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2003.

- البخاري: الجامع الصحيح، (تح صدقي جميل العطار)، ط1، لبنان، دار الفكر، 2003.

-أنخل جنتالت بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي (تر حسين مؤنس)، ط2، القاهرة، دار الثقافة الدينية،2008.

- ابن بشكوال: كتاب الصلة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2008.

- بلعالم محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات، الجزائر، المعرفة الدولية،2011

-بلغيث محمد الأمين: الحياة الفكرية الأندلس في عصر المرابطين، ط1، الجزائر، دار القافلة، 2014.

- بولطيف لخضر: فقهاء المالكية والتجربة الموحدية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2009.

-ابن تاويت محمد الطنجي: مقدمة تحقيق كتابه ترتيب المدارك وتقريب المسالك في أعلام مذهب الإمام مالك للقاضي عياض، ط1، المغرب، مطبعة فضالة، 1965.

- التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، (تح علي عمر)، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004.

-التهامي إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة ناشرون.2005.

- الجزائري محمد باشا بن الأمير: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2013.

- الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ط7، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

- ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط3، الرياض، مكتبة دار السلام، 2000.

- الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب،2008

-ابن خلدون عبد الرحمان: تاريخ ابن خلدون، ط1، بيروت دار الكتب العلمية،1992.

-ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،1998.

-الدسوقي: حاشية الدسوقي على شرح خليل، ط1، بيروت، دار الكتاب العلمية، 1996.

- دنش عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1988.

- الذهبي شمس الدين: زغل العلم (تح محمد بن ناصر العجمي)، مكتبة دار الصحوة، د، ت.

-الذهبي شمس الدين: سير أعلام النبلاء، (اعتناء محمد بن عيادي بن عبد الحليم)، ط1، القاهرة، مكتبة الصفا،2003.

- ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس، (تح عبد الوهاب بنمنصور)، ط2، الرباط، المطبعة الملكية،1999.
-أبو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، الجزائر، دار الشهاب، 1989.
-سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998.
-السلاوي الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،2010.
- شاوش الحاج محمد رمضان: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2011،
- شرحبيلي محمد بن حسن: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، المغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،2000.
- شواط الحسين: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ط1، دار ابن عفان، 1993.
-الحسين شواط القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. -سلسلة أعلام المسلمين، (72)، ط1، دمشق، دار القلم، 1999.
-الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (تح صلاح الدين الهواري)، ط1، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، 2011.
- الصيد سليمان: صالح ابن مهنا القسنطيني، ط4، قسنطينة، دار البعث، 1984.
- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. الهيئة المصرية العامة للكتاب،2008.
- ضيف بشير: بشير فهرست معلمة التراث الجزائري، الجزائر، دار ثالة، 2007.
- ابن عذراي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ت ج.س كولان وليفي بروفنسال - 3أجزاء- وإحسان عباس-جزء4- .بيروت، دار الثقافة-د،ت.
-ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت دار إحياء التراث العربي، د- ت.
- عياض القاضي: إكمال المعلم بفوائد مسلم، (تح يحي إسماعيل)، ط1، مصر، دار الوفاء، 1998.
-عياض القاصي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المغرب، وزارة الأوقاف، مطبعة فضالة، 1983.
-عياض القاضي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (تح عبد السلام البكاري)، ط1، بيروت، دار الفكر،2003.
- عياض القاضي: الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (تح محمد صديق المنشاوي)، مصر، دار الفضيلة، د،ت.
- ابن عياض محمد: التعريف بالقاضي عياض، (تح محمد بنشريفة) ط1، المغرب، وزارة الأوقاف، 1982.

- عياض: الغنية، (تح ماهر جرار)، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982.
- ابن الفرضي:تاريخ علماء الأندلس القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2008
-ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، (تح محمد الأحمدي أبو النور)، ط2، القاهرة، مكتبة دار التراث، 2005.
- ابن القاضي: جذوة الاقتباس بمن حل من الأعلام بمدينة فاس، الرباط، دار المنصور،1973.
-الكتاني عبد الحي: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، (تح إحسان عباس)، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1982.
-ابن كثير أبو الفدا: البداية والنهاية، ط6، بيروت، دار المعارف،1986.
-كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين، ط1، بيروت، دار الرسالة،1993.
-مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الفكر –د،ت.
- المراكشي ابن إبراهيم العباس: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (تح عبد الوهاب بن منصور) الرباط، المطبعة الملكية،1978.
- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط1، صيدا، المكتبة العصرية،1996.
-مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم (تح جميل العطار)، ط1، لبنان، دار الفكر، 2000.
- ابن مريم التلمساني المديوني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (تح محمد بن أبي شنب)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1985
- المغرواي محمد: الموحدون وأزمات المجتمع، ط1، المغرب، دار جدور، 2006.
-المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (تح يوسف الشيخ محمد البقاعي)، ط1، بيروت، دار الفكر،1998.
- المقري أبو العباس: موسوعة أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (تح سعيد أعراب، عبد السلام الهراس) المغرب، 1981.
- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية،1980.
- النيفر الشاذلي: مقدمة كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، ط1، تونس، الدار التونسية للنشر1987.
- الوادآشي: برنامج الوادآشي، (تح محمد محفوظ)، ط1، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1980.
- الونشريسي أحمد بن يحي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب (ت محمد حجي)، بيروت دار الغرب الإسلامي،1981.